الأم

إسمها « ليلة » . وقد سماها ابني أحمد بهذا الاسم لأن لونها أسود كالليل لا تبرق فيه بارقة . وقد وجدها في الطريق تموء وتصرخ وأتى بها إلينا عن إشفاق ، كي تموء وتصرخ صراخاً كريهاً كأن بها صرعاً وحاولت أن أقذف بها الى النافذة سماراً ، غير أن مجلس العائلة وعلى رأسه زينب زوجي حرّم عليّ ذلك ورموني بالقسوة والجحود لمبدأ الرفق بالحيوان . كأن الصراخ المزعج الذي ينطلق الى رأسي ويجهز على أعصابي ليس فيه قسوة . ولم أجد في عيون عيالي وزوجي شيئاً من الرفق نحو عائلهم وسيدهم ! . لذلك وجب عليّ أن أحتمل التعذيب من أجل هرّة صغيرة فراؤها أسود قذر مريض . وفضلاً عن ذلك فهي تنظر نظرات بغيضة إلى كل من اقترب منها ، وتطلق مخالبها وتزمجر ويعلو صوتها كأنها تلعن وتسب وتنذر عن حقد حتى حين أقبل عليها أحمد بطبق من ثريد اللبن لطعمه وهي تلتهمه التهاماً وأسالت الدم من يده . رأيت ذلك في شيء من التشفي والانتصار وقلت إنها ككل هرّة لئيمة الطبع خائنة حتى مع من أحسن إليها . ومرّة أخرى كلهم ضدي : إنها مذعورة تنشب مخالبها كي تتقي القسوة والتعذيب والنكاية التي ألفتها من الناس والأطفال . وحين تتبدل الحال ، وترى العناية والرعاية يتلاشى منها كل نفور ومرارة وتأنس إلينا ، ثم إن البيت الذي فيه قط لاتدخله الجرذان والفئران ولا غيرها من الهوام . وأعطيت الأوامر بزيادة اللبن وحين نجلس الى المائدة يستقطع نصيب الهرّة وأعد طبق خاص « لليلة » ومكان وثير لنومها غير أنها كانت تنبذه وتتخير لنفسها كل مرّة مكاناً غيره وبذلك جدّ في بيتي عضو رغم أنفي .

بعد أيام تبدل فراء « ليلة » الى السواد البراق السليم . وامتلأ جسمها الهزيل وخرجت عن عزلتها وصارت تفد إلينا حيث نجلس . وتموء بصوت هادئ ليس فيه ذعر أو نفور . كأنها تسلم على أفراد الأسرة . وتتخير لنفسها أجمل مقعد . ولما زادت لها نيتها صارت تتخير حجر من تود وتمسح رأسها بذقنه . وتعمل بلسانها في فرائها لتنظفه وتجلوه . ثم تتثاءب وتنام ملء جفونها أحلام . وتولى أحمد أمر تغذيتها وتربيتها ، فيدعوها باسمها حتى ألفته ورضيت به ، ويأخذها بالشدة إذا بدرت منها بادرة . وعرفت بعد الحزم أن الأكل

المباح هو الذي يقدّم إليها فقط وحرم عليها بعض انصنافه ولا تقبل على كل آكل تنزلف إليه ولم يبق إلا أن أنظم الى محبيها وأعترف بها عضواً كريماً محبباً بيننا وخاصة حين رأيت علاقتها الطيبة برضيعتنا زيزي . وهي تكاد تضمها خنقاً فتلي هذه في يدها في وداعة وصبر . بل تقبل عليها تداعبها . ولا تنشب أظافرها إزاءه أي قسوة من ابنتنا ولا تطلق صوتاً . يدل على النفور أو الامتعاض . وهذا ما زاد في حبي في « ليلة » .

في مدى أسابيع صارت تامة الجو تسير في خيلاء تجيب كل فرد منا حين ينادي « ليلة » وتتنحى عن كل شيء محذرها منه . فذات يوم رجف قط أبيض ضخم فيه خشونة وفي نظرته شراسة السبيل الى مسكن فانطلقت « ليلة » إليه كالسهم وقوست ظهرها . ويا لهول منظرها بفرائها المنفوش ونظراتها التي تقدح شرراً . ونشبت أظافرها وزمجرت ولطمته لطمات قاسيات رغم تباين الجرم وحرمت عليه البيت تماماً . وهذا ما أقره كل واحد منا في كثير من السرور . وبقيت في بيتنا لا تبرح بابه مهما نفذت الى خياشيمها روائح الطعام من مطابخ جيراننا ومهما كانت أكثر إغراء وأوفر دسماً .

ذات ليلة في الشتاء تنبهنا أن « ليلة » لا تجلس معنا كالعادة . فنادها أحمد ولم تجب إلى ندائه نطاف في الغرف يبحث عنها دون جدوى . لابد أن يداً أثيمة امتدت الى هذه المخلوقة العزيزة وحرمتنا إياها . وسوف يطوف الأولاد بالجيران في الغد حتى يعثروا عليها . وعم البيت كآبة حزينة من أجلها .

وحين خرجت في الصباح المبكر الى عملي وجدت ليلة جالسة أمام الباب متعبة كليلة ليس في عينيها شعاع أو بريق ووجهت الباب بحلي حزينة فصرخت أزف البشرى الى الأولاد وانصرفت . وعلمت أنا أهملنا البحث عنها خارج المنزل وتركناها تقضي ليلة طويلة فوق البلاط القارص . وقد أصبحت مترفة لا تحتمل مثل هذه الشدائد . وفي الليلة التالية كانت « ليلة » بيننا وقت العشاء وحضر إلينا بعض الضيف وكانت لدى الباب في تحيتهم . وأمضينا الليلة مع زوارنا في سمر . ولما انصرفوا تحسسنا « ليلة » فلم نجدها وتفقدناها خارج البيت فلم نعثر لها على أثر . لقد عرفت السبيل الى خارج البيت . وهذا لا يتفق مع نظام الأسرة . وأخذ أحمد على عاتقه أمر صيانتها من هذا النزق . غير أنها أفلتت رغم كل حيطة في الليلة الثالثة وكان كل بحث غير مجد . وخرجت لزيارة صديق لي ووعدت أولادي أن أبحث عنها وأردها الى حضرها إذا وجدتها . وطفقت أنادي وأبحث دون طائل . ولما عدت الى البيت في ساعة متأخرة من الليل وجدت معركة ناشبة في فناء البيت بين قطيع من الهرات اللاتي ألفت عيشة الخشونة والسطو وبينها « ليلة » الوديعة الأنيقة إن إهمالنا شأنها قذف بها بين

البراثن المفترسة . وناديتها في شيء من الاستعطاف والاقرار بالذنب لجريرة اثمناها . غير أنها نظرت اليّ نظرة كلها غرابة . وأقبل عليها القط الأبيض ضخم الجثة وهرعت أمامه الى أعلى الدرج . ولم أجد بدًّا من اقتحام المعركة كي تخلص هرتنا المسكينة من هذا العاتي، على أني فهمت تواً أنها ليست معركة . وإن كانت كذلك فهي نضال الحب والنصح لي أن تدخلي عمل غير نبيل .

أخذ أولادي على عاتقهم أن يضعوا حداً لهذا الجنوح، وشددوا الرقابة على «ليلة» وسيرها المريب في الليل، وبقيت «ليلة» متسائلة حتى انتهينا من العشاء . وبقيت تموء متوسلة بكل أنواع الرقى وكان في صوتها رجاء وشغف ولوعة . وأمرها كل طفل بدوره أن تلزم السكينة فهم أحد يمنعها بل ضربها ضرباً ليس فيه اشفاق فانتهرته في شدة ونتحت لها الباب . وخلفت لي غضب الأولاد جميعاً . وقالوا انها رغبتي القديمة أن أتخلص منها ولم يكونوا في السن التي تسمح لي أن أكاشفهم بما يفصل القراء بالطرقات .

وعادت في الصباح كعادتها متعبة تكاد لاتستطيع قدماها أن تحمل جسمها ... الانهاك فقذرة القراء لا تقوى على فتح عينيها تجر ذنبها جراً، ولا رغبة لها في الحركة ولا في الغذاء مع شدة حاجتها إليه وقصدت إلى مكان مريح تسقط عليه الشمس الدافئة . فلا تبغي غير النوم والراحة . وكان دور زينب أن تدافع عن الأمهات أو ما من في انتظار الأمومة . إزاء ثورة الانتقام التي أوغرت صدور الأطفال نحو هذه المسكينة وقالت ان الهرة هزيلة ضعيفة لابد أنها مريضة . ومن ... ي ربما وجدت في هواء الليل ما يعيد اليها صحتها . غير أن منطق الأطفال السليم يعزو سقمها وضعفها الى سهر الليالي . وسوء السلوك . وفي النهاية أخطأت زينب وقالت ان «ليلة» سوف تصير أماً . فسرهم القول أيما سرور وكان علينا أن نروي شغف الاستطلاع ونجيب على وابل من الأسئلة وكنا في صبيحة الجمعة ونستمتع جميعاً بضجعة طويلة . فتناومت وقد هجر الأطفال مضاجعهم الى سريرنا وبقيت أستمع الى حديث ... الأم في إفلاتها من كل ... ب محرج واستطاعت أن تكتمهم ولكنها لم تقنعهم وبدأوا يتفاهمون النتاج فيما بينهم ... تحولت الأمانية والشحناء في القسمة .

في المساء فتر حماس التضييق على هرة المسكينة بل كان في وسع الأطفال أن يتغاضوا أيضاً ويتركوا لها هذه الحرية ... التي اتضح أنها تنتج صغاراً . وانتهى المساء دون أن تبدي «ليلة» اهتماماً واضحاً بشأن هواها . وترك الأولاد مضاجعهم في فزع على صراخ بيد «ليلة» يقظ قريب . واتضح أنه القط الأبيض الضخم الجثة . وعلمت أنها طاردته إلى باب المسكن ولم تتبعه وسمعته يصرخ من حر الجوى خارج المسكن

وعادت ... ية * إلى حياتها الهادئة فقد ذاك من غرابها أقصى ما تصبو إليه ولا ترغب في المزيد فهي لا تتطلب من الحب إلا أن تصبح أمًّا !

ولما تبين للأطفال علائم الحمل واضحة جلية . وأن ... الأم تحضنه كثيرة لم يتركوا زينب حتى توضح لهم كيف عرفت يقين أن المرأة تنتظر الحادث السار ... زينب في إقناعهم . عادوا إلي بفضولهم وشره الاستطلاع . فقلت لا يمكن أن يفهم ذلك غير من سبق أن كان أمًّا . أما أنا فلا أزيد عن كوني أبًا . وللجنس الأنثى أسرار تغيب عنا .

يظهر أن زينب لم تكن أكثر اتزانًا من ابنها أحمد ... أو في حدة ... باقي ... الصورة لم تكن زوجي أقل اشفاقًا ورفقًا بالحيوان من أولادنا . إذ أنها طيبة القلب التي ورثوها عنها أنا أدعو الأشياء بأسمائها . وليس ... في نظري إلا ... فقد جاءت زوجي أيضًا ذات يوم بقط لا يكاد يبلغ الأسبوع الأول من عمره ... مريض ملوث بالطين وغير ... يفرز دمًا من مكان ما فيه . تتقزز منه النفس ... وخلاف ذلك يجب أن يكون هذا المخلوق مصدر عدوى . ولم أجد في بيتي من يناصرني سوى «ليلة» . فرغم عبثها الذي أثقلنا ، وجعلها بليئة ... النوم والراحة هبت ... وبدا في وجهها العدوان والشراسة ... من فيها كأنها تبني ... وكنت ... بأغلبية من أولادي إلى جانبي حين قلت ... الثورة ... المريض التي ... «ليلة» ومن الحمل لخطر على «ليلة» في حملها . أو خطر ... بدلاً من التفكير في إزالة هذا المكروه . كان هم الجميع مجرد حجز القط الجديد عن «ليلة» وأطلقوا عليه الاسم ... ولماذا يا ترى ... هذا المقترح ... قالوا لأنه ... أن الليل لا بد يتلوه فجر !

... الأيام التالية في الاهتمام «بليلة» وأمر ... ما المشتل لم يبق سوى قطنا ... في ... وسبقت أولادي ... أن يبكي ... قط دميم ... لا يبقى ... طويلة ... إن ... على التحقيق ... لأول ... في ... وحظوة ... على أمنا أمومة ... المكان ... بعين ... طيبة ... أن لا ... زاد ... عنها وتسابقنا في رعاية وشؤون ... وأردت أن ... لها مجاملة ... أن زينب ... بمعرة وابتسامة كأنها ... من أبله كلل الرجال . على ... دمًا شهيًا وغذاء سخيًا في نوعه ...

... من ... على ... لقد ... وفي النهاية ...

حين تبغي الخلوة ولم تكن الرقابة من الأمور الميسورة لأنها أيضاً تستغل غفلتنا لتتسلل الى مكان مأمنها. وهرع أحد الينا وأغلق الغرفة التي اختفت فيها وقلبنا المقاعد ونبشنا الزوايا وفوق بعض الوسائد المهجورة وجدناها تلعق هذا الشيء اليسير الضئيل. وهي تنظر الينا نظرة حزينة تائهة يائسة وماءت بصوت جريح خافت. وعادت تلعق وحيدها كأنها على يقين أن ربانها عدم الحياة ورفعت الينا نظرة تقرعنا إن كان لهذا الفضول نهاية! وبعد ساعة أو ساعتين أعلن الاولاد أنها أخفت ابنها عنا. إنها لا تستطيع أن تترك وحيدها في مهده وسط عبثنا وفضولنا. ولا يمكن أن يرضيها أن فلذة كبدها ألعوبة … ولم يكن عملها هذا الا حافزاً جديداً لبحث مضن. ولو أننا أقنعنا الأطفال طويلاً أن يتركوها في أمان حتى يكبر «صباح» فيسعى هو اليهم ويلاعبهم. على أنهم يؤكدون لنا … أن لا يصيبوا أمها بسوء. ومضى يوم برمته ولم يهتد أحد على مهد الصغير. والغريب أنها تخيرت مكاناً يدل على الفطنة. ففي أقرب مكان يجب أن يتبادر الى الذهن لقد أخفت «صباحاً» ولكن البحث لا يتناول أقرب مكان. وهذا هدفها هذه المرة، بل يتناول كل خفي قصي لقد وضعته تحت سريرنا في المكان الذي كثيراً ما نجتمع فيه. وهكذا على مرأى منا تختفي غير ملحوظة وتنعم بخلوتها المحبوبة. ومجرد الصدفة أن وقع نظر أحد الأطفال … وهي تخرج من تحت السرير.

لقد بالغ الأولاد في اعداد خدعتها بحيث يكون لينا مريحا نظيفاً آمناً وسدوا أيديهم الى «صباح» لنقله فجاءت وليانه تهرول وتتوسل، ولم يكن في صوتها حنق أو … ولم يبد على وجهها شراسة أو نقمة. لم يكن سوى الوله والتوسل في ضعف واستكانة ومرت خلف الأطفال، ووضعوا الابن في خدعه وحملوها اليه ورأينا جميعاً في حسرة وحزن أن حياة «صباح» في خطر. وهكذا كان شعور الأم. ماذا فعلت كي تنقذه وتمده بالغذاء … ألقت بنفسها على ظهرها وسحبته الى بطنها سحباً كي ينهش من جوجوها ويولغ الى ثديها إذا شاء. وهذا المخلوق يتحرك حركات بطيئة ليس فيها رغبة أو قصد ثم يعمد الى حركة متواصلة مماثلة طوع النفس المسرع الى النهاية: حتى فترت حركته تماماً وقت دقيقة حائرة وقد هالها القدر. تنظر الينا والى الذي انقطعت انفاسه بعين تائهة هوجاء و … منها كي تقصيه ولكي تقصر زمن الفراق. فتملقت بنا بمخالبها الحادثة، لأنها حين تريد تكون المخالب رهيبة. وهي ضارعة فوضعناه أمامها كي تودعه الوداع الأخير، فلثمته بأنفها وتمر بلسانها بهذا الجسم الذي برد. ثم تنظر إلينا ونطقت في وضوح إذ … لنا الآن حيلة، ومالت برأسها اليه. وخرج من فيها الصوت الذي هو الحسرة واليأس، وأمرت رحمة

بها وبنا أن يقصي عنها لحزن خلف المشيم ولكنا حلناها ومنعناها أن تجري وراء اليأس!

ومضى زمن وهي تجوب كل غرفة وكل زاوية وهي تصرخ وتنادي، ثم تعد الينا وتقف بيننا. وتنظر الينا وتتكلم كلاماً واضحاً في مقاطعه حزن في لحنه. لأنها تدري على يقين أننا أصبحنا بحال ما أسرة واحدة وأننا نقدر مصابها محزونين آسفين ثم تهبط برأسها وتعود سيرتها في البحث والنداء اليائس.

وقالت زينب إن «ليلة» سوف تجن لا محالة حين سمعناها تصرخ في وحشة صراخاً عالياً متواصلاً باكياً كأنها فهمت الآن فقط أنه الفقدان. وبعد برهة جاءت إلينا. وتكلمت هادئة متئدة وخرجت وكأنها تدعونا بنظرة وجاءت مرةً أخرى ونطقت نفس المقاطع بنفس الهدوء وخرجت الى نفس الاتجاه وكررت هذا مرات وفي النهاية قلنا لا بدّ أنها تبغي أمراً. وتبعناها. وجاءت أمام باب مغلوق وأفرغت في صوتها كل توسل ورجاء وبان في عينها شغف أكيد أن تفتح لها الباب الموصود.

هذه غرفة المهمات للخياطة والرتق وتنقية الحبوب وغير ذلك ولأنها غرفة رحبة خصصناها للقطة «جر» ليعيش فيها في مأمن من غوائلها. فحذرت زينب أن تفتح الباب غير أنها حملت «ليلة» وفتحها بعين مغرورقة وفتحت الباب فاندفعت «ليلة» الى القط المسكين وسكبت كل شغف وخلعت عليه عطفاً وحنواً تلعقه وتمسح فراءه ورقدت وجرت القط في رفق إلى بطنها فنشب مخالبه عائدة الى بطنها ومدّ فمه وبدأ يرتضع في نهم الفداء الشهي وينعم بالأمومة. وليلة تتحمل آلام المخالب الحادّة في جلد ولذة وارتسم على وجهها الهدوء والسلوى ورأيت زينب تشهق بابتسامة السرور وعيون مغرورقة وبعد هنيهة وجدنا «ليلة» تحمل هذا الابن الناعم الى مكانها المختار لتستمتع بالأمومة كاملة ومن هذا الحين صارت تناديه نداء خاصاً لو شاءت أن تغذيه من ثديها. وكنا اذا قدمنا لها طعاماً شهياً تناديه نفس النداء أو تجوب الغرف بحثاً عنه وتأتي به ليقاسمها اللقمة ولكنه كان كمثل ابن مغمور بالأثرة والأنانية فلا تعجبه المضغة إلا التي في فمها فتتركها له راضية قريرة بل إنه ليترك ما في فمه ليسحب ما بين أسنانها.

في أيام قلائل نما «جر» وصار يجوب الغرف جرياً وعدواً ويتعلق بأهداب الأشياء لينشىء لنفسه ألعوبة والمنظر الفاتن حين يداعب أمه ويعجبه أن يعض ذنبها الذي تثنيه وترخيه. ويكون في عينها حلو السكرى فيتركها بغتة ليأتي مسرعاً وينقض عليها ويحرمها النوم الجميل ويحملها على مداعبته. فتداعبه وتضحي براحتها.

لقد انقضى «صباح» سقيم وانبثق لها «فجر» باسم.

دكتور علي صبحي